وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٧﴾

**شرح الكلمات:**

**سُلالة:** السلالة: ما استُلَّ من الشيء؛ الخلاصةُ لأنها تُسَلّ من الكدر. والسلالةُ: النسلُ والولدُ (الأقرب).

**طين:** الطين: ترابٌ أو رملٌ أو كِلْسٌ يُجبَل بالماء ويُطلى به (الأقرب).

**عَلَقةً:** العَلَقُ: الدمُ عامةً، وقيل الشديدُ الحمرةِ، وقيل الغليظ؛ وقيل الجامد. العَلَقة: القطعة من العَلَق للدم (الأقرب).

**مُضْغة:** المضغة: قطعةُ لحم (الأقرب).

**التفسير:** أي أن الخَلق الروحاني سبع درجات مثل الخَلق الجسدي للإنسان. فأولاً نخلق الإنسان من خلاصة الطين.. أي من الغذاء الذي يخرج من التراب مثل النبات والحيوان والجماد وغيرها. وهذا هو الحال في العالم الروحاني.. أي كما أن النطفة تتكون من الأغذية التي يتناولها الإنسان والتي تخرج من الأرض، كذلك فإن بذرة الروحانية أيضًا لا يمكن أن تنشأ في الإنسان ما لم يتولد فيه الخشوع والخضوع والتواضع، وما لم يتخلّ عن مادة الكبرياء والزهو.

ثم إن الإنسان عندما يتناول هذا الغذاء الحاصل من التراب يحوّله الله تعالى نطفة ويُقرّها في مكان راسخ؛ وهي الدرجة الثانية في الخَلق الجسدي. أما في الخَلق

الروحاني فقد قال الله تعالى إزاء ذلك ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.. أي أنه لا بد من الأخذ بأنواع الحيطة للحفاظ على النطفة المستقرة في الرحم وإلا هناك خطر لضياعها، كذلك تتطلب بذرة الروحانية في الإنسان أن يتجنب كل نوع من اللغو وإلا فهناك خطر أن لا يكتمل خَلقه الروحاني.

والدرجة الثالثة في الخَلق الجسدي هي ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾.. أي نحوّل النطفة إلى دم متجمد. وأما في الخَلق الروحاني فقد قال الله إزاء ذلك ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾.. أي كما أن النطفة تتحول علقةً وتلتصق بالرحم، كذلك فإن العبد إذا تقدم في الروحانية بلغ مقامًا حيث ينشأ في قلبه حب الإنسانية، فينفق أمواله على الناس للنهوض بهم.

أما الدرجة الرابعة في الخَلق الجسدي فذكرها الله تعالى بقوله ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾.. أي تتحول العلقة إلى مضغة من اللحم بمعنى أنها تتخلص مما فيها من وسخ ودرن. أما في الخَلق الروحاني فقد ذكر الله إزاء ذلك ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾.. أي أن المؤمن الحائز على هذه الدرجة يحفظ كل منفذ من منافذه، حيث يصبح كائنًا مستقلاً قادرًا على حماية نفسه من السيئة بإرادته.

والدرجة الخامسة في الخَلق الجسدي هي قوله تعالى ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾.. أي بعد مرحلة المضغة تتولد العظام في الجسد. أما في الخَلق الروحاني فقد ذكر الله تعالى إزاءه ذلك ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.. أي تنشأ في هؤلاء المؤمنين صلابة روحانية، فيراعون أماناتهم وعهودهم حتى مع الأعداء، ولا يأخذهم في ذلك طمع ولا ضعف. وكأن الجميع يعرف أن هؤلاء القوم لن ينكصوا عند الاختبار، بل سيوفون بعهدهم حتمًا في كل حال.

والدرجة السادسة في الخَلق الجسدي هي قوله تعالى ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾.. أي تُكسَى العظام باللحم في هذه المرحلة. أما في الخَلق الروحاني فقد ذكر الله إزاء ذلك ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.. أي أنهم يحافظون على صلواتهم وصلوات قومهم. فكما أن الجنين إذا كُسِيَ الجلدَ أصبح محفوظًا من الضياع إلى حد كبير، كذلك فإن الذين يحافظون على عبادة قومهم يصبحون في مأمن من

التأثيرات الخارجية الضارة أفرادًا وقومًا لكون القوم كلهم صالحين، كما يصبح الجنين محفوظًا من التأثيرات الخارجية إلى حد كبير بعد أن يُكسى الجلدَ.

أما الدرجة السابعة في الخَلق الجسدي فذكره الله تعالى بقوله ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.. أي بعد أن نكسو العظام لحمًا وجلدًا نخلق الجنين خلقًا جديدًا، حيث يُولَد ليصبح بشرًا سويًّا. أما في الخَلق الروحاني فقد ذكر الله تعالى إزاء ذلك قوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .. أي أنهم سيرثون بعد الموت إنعامًا هو جامع لكل نوع من النعم. فكما أن الإنسان يُعتبر في عالم الأجساد جامعًا لكل ما يوجد في الحيوانات من كمال، كذلك فإن الإنسان الروحاني ينال بعد موته كل أنواع النعم. وكما أن الإنسان المادي يكون قادرًا على حماية نفسه وقومه، كذلك فإن الله تعالى بنفسه يتولى الحماية الروحانية للإنسان الروحاني.

وقد ذكر الله تعالى آخر مراحل الخَلق الجسدي في قوله ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، وهذا ينطبق على الخَلق الروحاني أيضًا، بمعنى أن الإنسان حين يبلغ هذا المقام خلال رقيه الروحاني يُعطَى خلقًا جديدًا يثير إعجاب الجميع، فيضطرون إلى حمد الله تعالى.

وهناك واقعة تاريخية تتعلق بهذه الآية يجدر ذكرها هنا. كان ثمة كاتب اسمه عبد الله بن أبي سرح، وكلما نـــزل على النبي ﷺ شيء من الوحي دعاه وأملاه عليه. وذات يوم كان النبي ﷺ يملي عليه هذه الآيات، فلما بلغ قولَ الله تعالى ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ قال الكاتب من تلقائه ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فقال لـــه النبي ﷺ اكتبْها أيضًا فقد نـــزلت عليّ في الوحي. ولم يفكّر الكاتب أن هذه الجملة نتيجة منطقية وطبيعية للآيات السابقة. إنما ظن أن محمدًا (ﷺ) لما سمعها من فمه عَدَّها من عند نفسه آية قرآنية؛ وهذا يعني أنه يختلق القرآن كله من عنده، معاذ الله. فارتد الكاتب وذهب إلى مكة. ولدى فتح مكة كان عبد الله هذا بين أناس أمر النبي ﷺ بقتلهم حيثما وُجدوا. ولكن عثمان رضي الله عنه أجاره، فظل مختفيًا في بيته ثلاثة أيام، ثم جاء به عثمان ذات يوم إلى النبيّ ﷺ والناس يبايعون على يده،

والتمس منه ﷺ أن يقبل منه بيعته. فتردد النبي ﷺ أول الأمر، ثم قبِل بيعته، وهكذا أسلم عبد الله بن أبي سرح ثانية. (الإصابة في تمييز الصحابة: حرف العين، عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وأبو داود: كتاب الحدود، باب الحكم في من ارتد)

وليكن معلومًا أن قوله تعالى ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ لا يعني أن هناك خالقًا من دون الله تعالى، بل كلمة ﴿الْخَالِقِينَ﴾ تعني هنا المقدِّرين. فقد قال الإمام الراغب ما نصه: "معناه أحسنُ المقدِّرين، أو يكون على تقدير ما كانوا يعتقدون ويزعمون أن غيرَ الله يُبدِعُ؛ فكأنه قيل: فاحْسَبْ أن ههنا مبدِعين ومُوجِدين، فالله أحسنُهم إيجادًا على ما يعتقدون" (المفردات). أي أن بعض الناس يقولون إن من سوى الله أيضًا يبدع ويوجد، فأجاب الله تعالى بأنه مما لا شك فيه أن في الدنيا مبدِعين وصنّاعين سوى الله تعالى، ولكنه لو تمت المقارنة بين ما صنعوا واخترعوا وبين ما أوجده الله وصنَع لاضطروا للاعتراف بأن ما أبدعوا لا يساوي شيئًا إزاء صنع الله تعالى. فمثلاً إن الله تعالى سميع وبصير، وإنه تعالى قد وصف الإنسان أيضًا بذلك فقال ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(الإنسان:٣)، وهذا لا يعني أن الإنسان شريك في صفتي الله السمع والبصر حقيقة، وإنما المراد أن الله تعالى حين وهب له قوة السمع والبصر سماه سميعًا وبصيرًا على سبيل المجاز. ثم يجب أن لا يغيبن عن البال أن الله تعالى قد استعمل للإنسان لفظي "سميع وبصير"، بينما سمى نفسه "السميع البصير".. أي أنه تعالى يستجمع في ذاته كافة كمالات السمع والبصر، أما الإنسان فسمعه وبصره محدودان جدًا، إذ لا يقدر على أن يسمع صوتًا بعيدًا، ولا أن يرى شيئًا موضوعًا وراء ظهره. وبالمثل، فبرغم أن في الدنيا صنّاعًا ومخترعين كثيرين سوى الله تعالى، إلا أن صناعاتهم ومخترعاتهم لا تساوي شيئًا إزاء صُنع الله تعالى. ثم إنهم ما داموا يخترعون هذه الأشياء بفضل ما حباهم الله به من قدرات وكفاءات، فثبت أن الله تعالى هو ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ في جميع الأحوال، وليس أي إنسان.

وفي الأخير أرى لزامًا علي أن أبين أن الوصول إلى المقام الروحاني المشار إليه في قول الله تعالى ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يتوقف على الاجتهاد والتضحية والعمل المتواصل، وهذا يتطلب من الإنسان السعي الدءوب لجلاء نفسه وصقلِها مدة

طويلة. بيد أنه في بعض الأحيان تقع أحداث مصيرية انقلابية تأخذ المرء في لمح البصر من الفرش إلى العرش، ومثالها الخالد حادث إسلام عمر ﷺ. كان عمر ﷺ يعادي الإسلام عداء شديدًا، ولكنه كان مزودًا بالمواهب الروحانية أيضًا. أعني أنه، رغم شدة غضبه ورغم إيذائه النبي ﷺ وأصحابه، كان يحمل بين جنبيه قلبًا رقيقًا. فعندما أراد المسلمون الهجرة الأولى إلى الحبشة تجهَّزَوا للرحيل من مكة قبل صلاة الفجر كيلا يمنعهم المشركون ولا يؤذوهم. وكانت العادة في مكة أن يتفقد بعض رؤسائها شوارعها ليحرسوا الناس من السارقين. فخرج عمر ﷺ في تلك الليلة على نوبته للحراسة. فرأى أكوامًا من الأثاث أمام بيت، فتقدم عمر وإذا هو بسيدة واقفة بجنب الأثاث. ولعل عمر كان صديقًا لزوج تلك الصحابية فقال لها: ما هذا؟ يبدو أنكما خارجان على سفر طويل. ولم يكن زوجها عند الأثاث، ولو كان هناك فلربما اختلق لسفره عذرًا من الأعذار خوفًا من عداء المشركين وأذاهم؛ ولكن لم يكن عند تلك الصحابية أي خوف كهذا، فقالت يا عمر نحن مهاجرون من مكة. فقال عمر: ولكن لماذا تهاجرون؟ قالت: نترك وطننا لأنك وإخوانك لا يريدون لنا أن نعيش فيه، ولا نستطيع أن نعبد الله تعالى هنا بحرية. فبرغم أن عمر كان يعادي الإسلام عداء شديدًا، وبرغم أنه كان لا يبرح يضرب المسلمين، إلا أنه لما سمع الصحابية الواقفة هناك في ظلام الليل تقول له بأننا نترك أوطاننا لأنك وإخوانك لا يريدون لنا العيش فيه ولا يسمحون لنا بعبادة الله بحرية، حوّل وجهه إلى الناحية الأخرى ثم ودّعها وقال: صحبكم الله. ويبدو أن الرقة قد غلبت على عمر لدرجة أنه علم أنه لو لم يحول وجهه إلى الناحية الأخرى لبكى. وبينما هو في ذلك إذ وصل زوج تلك الصحابية. فلما رآى عمرَ واقفًا هناك خاف أن يحول دون سفرهما إذ كان يعلم أنه عدو لدود للإسلام. فسأل زوجته كيف جاء عمر هنا؟ فقالت لقد وجدني واقفة هنا، وسألني عن قصدنا؟ فقال لها إني أخاف أن يثير عمر شرًا. قالت يا ابن عم – وكانت العادة عن نساء العرب أن يقلن لأزواجهن يا ابن عم – تخاف أن يصيبنا عمر بشر، وأنا أرى أنه سيدخل في الإسلام في يوم من الأيام. فإني لما قلت لـــه: إننا تاركون مكة لأنك وإخوانك لا يتركوننا لنعبد ربنا

في حرية، أدار وجهه إلى الناحية الأخرى، وقال لي حسنًا، صحبكم الله. وكان في صوته ارتعاش، وأظنه قد اغرورقت عيناه، وأرى أنه سيعتنق الإسلام في يوم من الأيام حتمًا. (السيرة الحلبية الجزء الأول، باب الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة ص ٣٦١)

مرت الأيام ولم يزل عمر على عدائه الشديد للإسلام. وذات يوم قال في نفسه: لِمَ لا أقتل مؤسس هذا الدين الجديد نفسه؟ فاستلّ السيف وخرج من بيته بنية قتل النبي ﷺ. فسأله بعض القوم إلى أين تتجه يا عمر؟ قال إني ذاهب لقتل محمد (ﷺ). فقال الرجل ضاحكًا: ارجع إلى بيتك أولاً، فإن أختك وزوجها قد أسلما. قال عمر هذا كذب وافتراء. قال الرجل: اذهبْ وتحقَّقْ. فذهب عمر إلى بيتهما، فوجد الباب مغلقًا، وسمع صوت قراءة القرآن. فدقّ الباب. فقال زوج أخته: من؟ قال: أنا عمر. وكان زوج أخته يعلم أن عمر عدو الإسلام، فأخفى الصحابيَّ الذي كان يقرأ القرآن في ناحية من البيت، ووضع أوراق القرآن أيضًا جانبًا، ثم فتح الباب. ولما كان عمر قد سمع عن إسلامهما قال لـــه: لماذا تأخرت في فتح الباب؟ فلما حاول زوج أخته تبرير ذلك بعذر من الأعذار قال لـــه عمر: كلا، بل قد تأخرت عن فتح الباب لسبب آخر. لقد سمعت صوت شخص يقرأ عليكما ما يقول ذلك الصابئ - علمًا أن مشركي مكة كانوا يسمون النبي ﷺ صابئًا - فحاول نسيبُ عمر كتمان الأمر، فغضب عمر وهمَّ بضربه. فأسرعت أخته وحالت بينهما دفاعًا عن زوجها. وكان عمر قد رفع يده لضربه فلم يستطع أن يوقفها، فأصاب أنف أخته، فسال الدم. وكان عمر رجلاً مرهف المشاعر، فلأنه ضرب امرأة خلافًا لعادة العرب، ولا سيما أنها أخته، فحاول تغيير الحديث وقال لهما: حسنًا، أرُوني ما كنتم تقرؤون. فأدركت أخته أن عواطفه قد هدأتْ ورقّتْ، فقالت لـــه: كلا، لن نضع أوراق هذا الكلام المقدس في يد إنسان مثلك. فقال عمر: إذًا فماذا عليّ فعلُه؟ قالت: اذهبْ واغتسل أولاً، وعندها فقط سنضع هذه الأوراق في يدك. فذهب عمر واغتسل ورجع. فناولته أخته أوراقًا عليها آيات من القرآن. وكان عمر قد حصل انقلاب طيب في باطنه، فأخذته الرقة بقراءة تلك الآيات. فما أن انتهى من قراءتها حتى قال من فوره: أشهد أن لا إله إلا الله،

وأشهد أن محمدًا رسول الله. عندها خرج الصحابي الذي كان مختفيًا في البيت خوفًا من عمر. فسأله عمر عن المكان الذي يقيم فيه النبي ﷺ حيث كان يغيّر مكان إقامته في تلك الأيام من جراء المعارضة الشديدة. قال إنه ﷺ مقيم في دار الأرقم. فأراد عمر أن يذهب إلى النبي ﷺ متوشحًا سيفه، فظنت أخته أنه ربما يخرج بنية سيئة، فوقفت في وجهه وقالت: والله لن أدعك تذهب إلى النبي ﷺ ما لم تقنعني أنك لن تعمل هناك أي شر. فقال لها: إني أعدك بكل صدق أني لن أثير هناك شرًّا ولا فتنة. فوصل عمر رضي الله عنه دار الأرقم حيث كان النبي ﷺ وأصحابه يتدارسون الدين، وقرع الباب. فقال أحدهم: من؟ أجاب عمر: أنا عمر. فاقترح الصحابة للنبي ﷺ بعدم فتح الباب مخافة الفتنة. وكان حمزة رضي الله عنه حديث الإيمان بينهم، ومغوارًا للحرب، فقال افتحوا الباب، وسأرى ما هو فاعله. ففتح أحدهم الباب. فلما دخل عمر قال لـــه النبي ﷺ: إلامَ ستظل سادرًا في معارضتي. قال عمر يا رسول الله، إنني لم آت معارضًا، بل لأصبح عبدًا من عبيدك. فعمر الذي خرج قبل ساعة كعدوّ لدود للإسلام وبنية قتل النبي ﷺ تحوَّلَ في لمح البصر من المؤمنين ذوي الطراز الأول. لم يكن عمر من علية القوم في مكة، ولكن كان قوي التأثير على شبابها بسبب شجاعته. فلما أعلن إسلامه كبّر الصحابة من فرط الحماس. بعدها حانت الصلاة، فأراد النبي ﷺ أداء الصلاة داخل الدار سرًّا، ولكن عمر الذي خرج قبل ساعة أو ساعتين بنية قتل النبي ﷺ جرّد سيفه ثانيةً وقال يا رسول الله، هل من العدل أن يصلي المؤمنون بالله ورسوله سرًّا في حين أن مشركي مكة يفعلون ما يريدون علنًا في حرية؟ هذا لا يجوز. وسأرى من سيمنعنا من الصلاة في الكعبة. فقال له النبي ﷺ: بارك الله في مشاعرك الطيبة، ولكن الظروف لا تسمح لنا بذلك بعد. (المرجع السابق، باب إسلام عمر ص ٣٦٦-٣٧٣)

هذا الانقلاب الذي حصل في عمر كان انقلابًا غير عادي، حيث انقلب في لمح البصر من عدو لدود إلى مؤمن من الطراز الأول. ولكن قليل هم الذين يحصل فيهم هذا الانقلاب المفاجئ. ثم إن هذا الانقلاب لا يمكن أن ينشئه أحد بنفسه، بل إنه يقع من الخارج من عند الله تعالى، ويقع بطريق مذهل حيث ينقلب العدو صديقًا

والصديق عدوًا. أما الارتقاء العادي فينشئه المرء بنفسه تدريجيًّا، فالذي هو في طور الارتقاء العادي، ومع ذلك يأمل أن يحدث فيه انقلاب ثوري، فلن يرى النجاح أبدًا. فمثلاً قد قال المسيح الموعود عليه السلام إن الله تعالى قد علّمني أربعين ألف مادة من اللغة العربية في ليلة واحدة (أنجام آتهم، الخزائن الروحانية مجلد ١١ ص ٢٣٤).*

كان هذا انقلابًا ثوريًّا حصل في نفسه عليه السلام. ولكن لو أن الطلاب احتجوا بهذا المثال ولم يذهبوا إلى المدارس منتظرين ملاكًا يعلّمهم ستين ألف مادة من العربية مثلاً، فمن ذا الذي سيعدّهم من العقلاء؟ كلا، إن هذا الانقلاب لا يولّده المرء بنفسه، بل يتولد من تلقائه. أما الارتقاء العادي فيتمّ من حال إلى حال بالتدريج ونتيجة الاجتهاد. إنما يحدث هذا الانقلاب مرة في آلاف من الأيام، أما الأيام الأخرى فهي أيام الانتقال البطيء والارتقاء المتدرج. وينتقل المرء من حالة إلى أفضل منها نتيجة السعي المتواصل والاجتهاد والتضحية. والارتقاء التدريجي والانتقال من حال إلى حال إنما يتأتى دائمًا بالنوافل وذكر الله والاجتهاد. فلو قام المرء بدراسة نفسه وفكّر كيف يمتنع من الرد على السباب بالسباب، وكيف يتحمل ظلم الظالم، وكيف يلتزم الصمت عند سماع اللغو من الكلام من أحد، اكتسبت نفسُه الكمال شيئًا فشيئًا. أما لو حصل في نفسه الانقلاب لبدأ في نفس اليوم بأداء صلاة التهجد والنوافل، وامتنع عن أكل الحرام وتجنب قول الزور، ولكن هذا لا يحدث لأن تطوره تدريجي ومنوط ببذل المجهود والسعي. وإنني أرى أن الناس لا يهتمون عادة بالسعي والجهد الذي قد حث عليه الله تعالى في هذه الآيات، بل ينتظرون حدوث الانقلاب المفاجئ فيهم. مع أن التطور الذي سيحصل فيهم إنما يكون تدريجيًّا ولا بد لـــه من السعي وبذل المجهود. وهذا يتطلب من المرء أساسًا أن يقوم بعبادة الله تعالى بخلوص القلب ويداوم عليها. لو أن المرء داوم على العبادة لَصدرت عنه الحسنات الأخرى من تلقائها. ولكن هذا لا يعني أن يكتفي

* وللتأكد من أن الله تعالى قد علّمه عليه السلام العربية في "ليلة واحدة" راجعْ رواية "السيد غلام نبي سيتهي" في جريدة "الحَكم" عدد ٢١-٢٨ أكتوبر ١٩٣٥م صفحة ٤. *(هذه الحاشية توجد في النص الأردو وليست من المترجم)*

بأداء الصلوات المفروضة فحسب، بل عليه أن يهتم بأداء التهجد والنوافل كما فصّلتُ من قبل. كما عليه أن يفي بعهده، ويساعد الفقراء ويحافظ على عفّته. وبالقيام بهذا الحسنات يرتقى المرء ارتقاء كبيرًا حتى ينال خلقًا روحانيًّا آخر، وتبلغ إنسانيته أوج كمالها.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٨﴾

**شرح الكلمات:**

**طرائق**: جمع طريقة، وطريقة الرجلِ: مذهبه (الأقرب).

**التفسير**: يقول العلامة القرطبي إن ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ هي السماوات السبع، لأن بعضها فوق بعض. فيقال: طارقتُ الشيء أي صلَبتُ بعضه فوق بعض. والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة (القرطبي).

وقد نقل العلامة أبو حيان في تفسيره: "وسبعُ طرائقَ السماواتُ، قيل لها الطرائق لتطارُق بعضِها فوق بعض. طارقَ النعلَ: جعَله على نعل. وطارَقَ بين ثوبين: لبِس أحدَهما على الآخر، قاله الخليل والفراء والزجاج" (البحر المحيط).

وقال الإمام الراغب في تفسيره لقوله تعالى في سورة الجن ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ إنه "إشارة إلى اختلافهم في درجاتهم". فهو يفسر "طرائق" بمعنى الدرجات. أما ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ فقال عنها "أطباقُ السماء يقال لها طرائقُ" (المفردات).

وعليه فقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ يعني أننا قد خلقنا فوقكم سبع درجات.. بمعنى أننا كما أكملنا خلقكم المادي في سبع مراحل، كذلك قسمنا رقيكم الروحاني في سبع درجات.

وما هي تلك الدرجات الروحانية السبع؟ يتضح لنا من دراسة القرآن الكريم أن الإنسان يشبه الجمادَ في درجته الأولى من رقيه الروحاني.. بمعنى أن الجماد كما يخلو من أي حس وشعور، كذلك يخلو بعض الناس من أي شعور وتمييز بين الخير والشر. فليس لديهم أي غاية سامية، ولا يتولد فيهم الإحساس بالخير ولا بخشية الله

مهما وعظتَهم ونصحتَهم. وقد أشير إلى هؤلاء في القرآن الكريم في قول الله تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾(البقرة:٧٥). وهذا يعني أن هناك أناسًا تخلو قلوبهم من حب الله كليةً حتى لا تجد عندهم أي إحساس بخشية الله تعالى. ليس عملهم إلا أن يأكلوا إذا جاعوا وأن يناموا إذا تعبوا. لا يفكرون أبدًا فيما فرض الله عليهم من مسؤوليات وواجبات، ولا يؤثر فيهم نصح الناصحين بل يذهب سدى. وهؤلاء يُشبِهون الجمادات في مجال الروحانيات.

والدرجة الثانية الروحانية تماثل النباتات.. أي أن الإنسان إذا تقدم في روحانيته وتخلى عن حالته الجمادية نشأت فيه قوة النماء كالتي تكون في النبات. والثابت بالتجارب على المدى الطويل أن في النباتات أيضًا روحًا وإن كانت جد ضعيفة بالمقارنة مع الروح الإنسانية. ومثاله نبتة تدعى بالعربية "المجزاعة"، وتسمى "لَاجْوَنْتِي" في لغتنا الأردية. فإن أوراقها تنكمش فورًا إذا ما لُمست. وهذا يعني أن النباتات أيضًا تتمتع بالحس، وإن كان بعضها أقوى حسًّا من غيرها. ولكن حسّها ضعيف جدًّا بحيث إنها لا تقدر به على تجنب الصدمات والأخطار. فنبات المجزاعة مثلاً يتقلص إذا ما لُمس، ولكنه لا يقدر على الفرار لينجو من الخطر. كذلك فمن الناس من يتمتع بالحس الروحاني إلى حد ما، ولكنه لا يستطيع حماية نفسه من الهجمات الخارجية. وقد أشار الله تعالى إلى هؤلاء في القرآن الكريم بقوله ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:١٩٩). لقد وصف الله تعالى هؤلاء بأنهم ينظرون ولكن لا يبصرون، وهذا دليل على أنه تعالى يتحدث هنا عن قوم يتمتعون بحس الخير إلى حد ما، ولكن الضعف غالب عليهم بحيث لا ينتفعون من هذا الحس كما ينبغي، ويظلون محرومين من الانتفاع من العلوم الروحانية وهم ينظرون.

والدرجة الثالثة الروحانية تشبه الحياة الحيوانية.. بمعنى أن الحيوان يسمع صوتك حين تُسمعه إياه، ولكنه لا يفقه منه شيئًا، وإذا حاولت إيذاءه هرب، ولكن ليس بوسعه أن يفكر في التدابير التي تحميه من الأخطار للأبد. كذلك يوجد في عالم الروحانية أناس يشبهون الحيوانات، وقد ذكرهم الله تعالى في قوله ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(الأعراف:١٨٠). لقد وصم الله تعالى هؤلاء القوم بضلال أشدّ، وذلك لأن وجود هذا العيب في الحيوانات شيء طبيعي، ولكن الله تعالى قد زود الناس بكل نوع من الكفاءات، ومع ذلك قد صار هؤلاء كالأنعام. فإنهم يلجأون إلى أخذ التدابير للنجاة وقت الخوف كما تفعل الحيوانات عند الخطر.. أي أنهم يتضرعون إلى الله تعالى وقت الخوف، ولكنهم لا يقدرون على حماية أنفسهم من العذاب للأبد، بل إذا كُشف عنهم العذاب عادوا إلى شرورهم ثانية.

وإذا ازداد الإنسان شعورًا بمحبة الله أكثر تبوَّأ الدرجة الرابعة، فيصبح مشغوفًا بالتقوى والروحانية، ويقوم بكل الأعمال بعقل وفهم. بيد أن الشيطان يغلبه أحيانًا، وإن كانت السيئة لا تنجح في الهجوم عليه إلا قليلاً، إذ أصبح قادرًا على معرفة أن السيئة سيئة. وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحالة الروحانية بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٢). يتضح من هذه الآية أن الشيطان يحاول جذب هذه الفئة من الناس إليه، ولكنهم ينتبهون فورًا، ويدعون ربهم لنجدتهم، فينجون من الهجمة الشيطانية.

ثم يترقى الإنسان أكثر فيصعد الدرجة الخامسة حيث يصبح مَلاكًا، بمعنى أنه يزداد معرفة بالله تعالى بحيث يصبح العمل بجميع أحكام الله بمثابة غذاء لـــه، فيصير كالملائكة الذين ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وينفذ أوامر الله تعالى كافة، ولا يركن إلى الغفلة أبدًا. وقد وصف الله تعالى هذه الفئة من الناس بقوله ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۞ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(الرعد: ٢٤و٢٥). فبما أن هؤلاء القوم يتحلّون بالصفات الملائكية فيهرع الملائكة لرؤيتهم ليبشروهم بقرب الله تعالى ونعمه.

وليكن معلومًا هنا أن هذا لا يعني أن الملائكة سيدخلون عليهم من أبواب متفرقة بدلاً من باب واحد بسبب كثرتهم، بل المراد أن الملاك الخاص بكل باب سيأتي كلَّ واحد من هؤلاء القوم ويقول له هنيئًا لك نجاحك في مسعاك حيث كُنّا

أنا وأنت نحارب الشيطان سويًّا. ذلك لأن السيئة تدخل في قلب الإنسان من منافذ عديدة. فتارة تدخل عبر العين، وأخرى من الأُذن، وحينًا باللمس وآخر بالتذوق. وإن الله تعالى قد جعل على كل منفذ من منافذ الإنسان ملَكًا يحفظه، ومن أجل ذلك حين ينال المرء الغلبة على الشيطان يأتيه الملاكُ المختص بكلِّ باب يهنئه.

ثم يرتقي الإنسان إلى الدرجة السادسة في الروحانية، فيبلغ من الورع والتقوى مقامًا حيث يضع نفسه في يدي الله ﷻ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:١١٣).. أي أن الذين يُسلمون أنفسهم إلى الله تعالى كليةً ويعملون الحسنات لهم أجرُهم عند ربهم، وسيكونون في مأمن من كل خوف وحزن. علمًا أن المرء عندما يكون في الدرجة السابقة الملائكية يظن نفسه قادرًا على فعل كل خير، ولو أُمر بشيء لنفذه حالاً. ولكنه حين يبلغ هذا المقام يصبح في حالة أخرى، فيقول أنا لست بشيء يا رب، بل خُذْني أنت حيثما شئتَ. ففي هذا المقام تصير أعماله كلها لوجه الله تعالى، إذ يضع نفسه في يد الله تعالى كشيء لا حياة فيه. وهؤلاء هم القوم الذين قال النبي ﷺ عنهم إن من الناس من يرتقي ويرتقي حتى يكون الله سمعه وبصره ويده ورجله (البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع).. أي تصير حركاته وسكناته كلها تابعة لمشيئة الله تعالى، ويصبح محفوظًا من كل اختبار وعثار.

أما الدرجة السابعة التي يبلغها المرء في ارتقائه الروحاني فهي مذكورة في قول الله تعالى ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.. أي أنه يُعطى خَلقًا آخر، فيصطبغ بالصبغة السماوية. في المرحلة السابقة كان لا يتكلم إذا كلمه الله تعالى، أما الآن فيشرّفه الله تعالى بدرجة خاصة بحيث لو قال شيئًا أصدر الله الأوامر بحسب ما قال وأراد. فكأنه في الدرجة السالفة صار الله تعالى يده ورجله، أما الآن فقد ارتقى مقامًا أعلى حتى أصبحت يده ورجله ولسانه يدَ الله ورجلَه ولسانَه ﷻ، وصار مصداقًا لقوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾(النجم: ٤و٥).

وهذه آخر نقطة من الكمال الإنساني، فإذا بلغها المرء انعكست في مرآة قلبه صفات الله تعالى، وأصبح مظهرًا لجلاله وجماله ﷻ. فمن عاداه عُدَّ عدوًّا لله تعالى، ومن أحبه صار موردًا للبركات والجوائز من عند الله تعالى. وإلى هذا المقام نفسه أشار مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام في بيت شعر لـــه بالفارسية:

اَے آں کہ سوئے من بدویدی بصد تبر

از باغباں بترس کہ من شاخ مثمرم

(إزالة أوهام، الخزائن الروحانية مجلد ٣ ص ١٨١)

أي يا مَن تعدو إليّ بنية تدميري شاهرًا السيف والفأس، خَفْ صاحبَ البستان، فإني غصن مثمر لا يمكن قطعه. وإن مكائدك كلها ستنقلب عليك، ولن تدمر إلا خطتك أنت، لأن الله تعالى نفسه مستتر في كياني من أخمص قدمي إلى قمة رأسي. فمن صال عليّ صال على الله في الحقيقة. ومن ذا الذي ينجح في الهجوم على الله عز وجل؟

فهذه هي المقامات السبعة التي جعلها الله ﷻ لإحراز الرقي الروحاني، فإذا ارتقى إليها الإنسان درجة فدرجة حظي بقربه تعالى وفاز بحبه الذي لا زوال لـــه.

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٩﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٠﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢١﴾

**شرح الكلمات:**

**الدُّهْن**: دهنُ السمسمِ وغيرِه: زيتُه (الأقرب).

**صِبْغ**: الصبغُ: ما يُصطبَغ أي يُؤتدَم به من الإدام (الأقرب).

**التفسير**: أي لقد أنـــزلنا من السماء ماء الحياة الروحانية بمقدار معين، ثم جعلناه يسكن في الأرض، وإذا لم يقدر الناس هذا الماء السماوي حق قدره فإننا قادرون على أن نغيّبه من الدنيا.

والحق أنه نفس النبأ الذي قد أشار إليه القرآن الكريم في مواضع عديدة، مبينًا أن الله تعالى قد أنـــزل من السماء وحيه الذي هو الشرع الأخير للإنسانية، وسوف يثبّته في الأرض ولن تقدر معارضة الناس منع ذلك. ولكن بعد مدة من الزمان وعند فساد الناس سيأخذ هذا الكلام في الصعود إلى السماء وسيرتفع من الدنيا في ألف سنة مما تعدّون (انظر سورة السجدة: ٦). وقد أوضح النبي ﷺ أن فترة قيام الشريعة الإسلامية هي ثلاثة قرون حيث قال في حديث لـــه: "خيركُم قَرْني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يلونهم. ثم يكون بعدهم قوم يشهَدون ولا يُستشهدون، ويخُونون ولا يُؤتَمنون، وينذُرون ولا يَفُون، ويظهَر فيه السمنُ" (البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذَّر من زهرة الدنيا).. أي أن أفضل الناس هم الذين في قرني. ثم الذين يكونون في القرن الثاني. ثم الذين يأتون في القرن الثالث. أما بعدهم فيأتي قوم إذا أدلوا بشهادتهم قال لهم القوم إنكم كاذبون ولا نثق بشهادتكم. ويكونون جد خائنين، فلن يترك أحد عندهم أمانته. ثم إنهم إذا نذروا نذرًا لله تعالى لم يفوه. سيصابون بالسمنة من كثرة الأكل والشرب.. أي أنه لن توجد فيهم عاطفة حب الدين والتضحية في سبيله.

وكذلك قال رسول الله ﷺ: "لا يبقى من الإسلام إلا اسمُه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمُه" (مشكاة المصابيح: كتاب العلم).. أي لن يبقى عند الناس لُبُّ الإسلام وجوهره، ولن يطّلعوا على معارف القرآن. ستخلو عباداتهم من الصدق والإخلاص، وستتقاصر أفهامهم عن إدراك علوم القرآن.

وطبقًا لهذه الأنباء الواردة في القرآن الكريم وكلام الرسول ﷺ أخذ الإسلام في الزوال والانحطاط بعد القرون الثلاثة الأولى، وساءت حالة المسلمين لدرجة أنهم لم

تبق عندهم قوة ولا غلبة. لقد جاء على المسلمين زمان كانت أوروبا كلها تخاف من سلطان مسلِم واحد، أما اليوم فلا يقدر العالم الإسلامي كله مقاومة أوروبا وأمريكا.

ثم إن حالة المسلمين العِمْلية أيضًا تكشف لنا مدى ابتعادهم عن الإسلام حيث يعتنقون عقائد تخالف تعليم الإسلام صراحة. وقد خلت قلوبهم من أي عاطفة لإشاعة الإسلام. ليس فيهم حب الله تعالى، ولا يوجد في حياتهم العَمَلية أي نموذج لحب الرسول ﷺ. يقولون بأفواههم إنهم مسلمون، وقلوبهم تشهد أنهم خِلْوٌ من روح الأسلاف. علماؤهم جاهزون دائمًا لإشعال فتيل الفتن والفساد، ولكنهم لا يلتفتون إلى الهدف الذي جاء من أجله الإسلام. أما الصلاة والصوم والحج والزكاة فإن الأكثرية منهم لا يهتمون بأدائها، ومن قام بها فإنما يقوم بها على سبيل التقليد فحسب. لا يدرون هدف الصلاة، ولا يدركون غاية الصيام، ولا يعلمون حكمة الزكاة والحج. وإن الله ﷻ الذي هو أكبر ثروة، والذي يستحيل بدونه أن تنمو شجرة الروحانية، قد صاروا غافلين عن محبته تمامًا. يظنون أن باب كلام الله وإلهامه قد انغلق الآن؛ لقد بعث الله تعالى المأمورين من عنده لإصلاح العباد في الماضي، ولكنه تعالى قد سد ينبوع هذه الفيوض الآن. لقد حجب الله وجهه عن أفراد أمة المصطفى ﷺ للأبد، وقطع عنهم الوحي والإلهام إلى يوم القيامة. فمهما صرخ الواحد الآن وبكى فلن يهيئ الله لـــه ما يشفي غليله ويسكّن روحه، بل تركه تائهًا في وادي الظلمات.

هذه هي الأوضاع التي يمر بها المسلمون في هذا العصر. لقد أصبح المسلم فريسة للقنوط والنكسة، وفقد الحماس للعمل. لا يوجد في أي زاوية من زوايا قلبه طموح ولا حماس ليكون غالبًا على الكفر. ولو استمر الوضع على هذا النحو لتعرَّضَ الإسلام للإبادة والفناء، ولاستحال كسرُ رأسِ إبليس أبدًا. ولكن الله الذي أخبر بانحطاط الإسلام لألف سنة، قد أنبأ أيضًا في القرآن الكريم ببعث محمد رسول الله ﷺ في الزمن الأخير بعثة أخرى ظِلّيّة (الجمعة: ٤). وقد ذكر من علامات ذلك الزمن أنه لن يوجد بين المسلمين علماء أتقياء يستطيعون هداية الناس وإرشادهم،

بل يأخذ مكانهم علماء زائفون يجهلون الدين جهلاً (البخاري: كتاب العلم، كيف يُقبَض العلم). وسيُخترع في ذلك العصر مركب جديد يحل محل الإبل. وستشاع الكتب والجرائد بكثرة. وستتم اكتشافات جديدة عظيمة في علم الهيئة والفلك. وتُشَقّ القنوات من الأنهار شقًّا (التكوير: ٥ و٧ و١١ و١٢). وستُنسَف الجبال نسفًا. وسيكثر السفر. وسيتم الحظر على تقاليد قبيحة قديمة كوأد البنات وغيرها بسن القوانين. ستُخترع من وسائل المواصلات ما لم تره الدنيا من قبل (المرسلات: ١١، والتكوير ٨-١٠). سيُشَقّ الحاجز البري الموجود بين بحرين، يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان، فيلتقيان، وتجري السفن بينهما بكثرة. وكان هذا إشارة إلى قناة السويس وقناة باناما. قد ذكر الله تعالى نبأ البحرين هذه في سورة الرحمن بقوله ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(الرحمن:٢٠-٢٤).. أي أن الله تعالى قد أجرى هذين البحرين بحيث إنهما سيلتقيان في وقت من الأوقات، بيد أنه لا يزال بينهما حاجز برّيٌّ حاليًا فلا يلتقيان الآن. وقد تحققت هذه النبوءة من خلال حفر هاتين القناتين حيث التقى البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط عبر قناة السويس، والمحيط الهادئ بالمحيط الأطلنطي عبر قناة "باناما".

ثم إن رسول الله ﷺ نفسه قد بشّر أُمّته أنه برغم صعود الماء الروحاني إلى السماء سيبعث الله تعالى رجلا فارسي الأصل، فيعود بكنـــز الإيمان من السماء إلى الأرض ثانية (البخاري: كتاب التفسير، سورة الجمعة، ومسند أحمد: الجزء الثاني ص ٤٣٧). فيكسر القوى الصليبية كسرًا، ومن خلال دلائله وبراهينه وأسلحته السماوية ومعجزاته وآياته وأدعيته، يُصيب أعداءَ الإسلام الصائلين عليه والغافلين عن مصيرهم بجراح لن يقووا بعدها على رفع رؤوسهم. إنه سيجعل الإسلام غالبًا في الدنيا تارة أخرى، ويرفع راية القرآن ومحمدٍ رسول الله ﷺ خفّاقة عالية. وسيُلحق في حربه دفاعًا عن الإسلام بالأديان الباطلة هزيمة نكراء لا مثيل لها. (أبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال)

ثم إن النبي ﷺ لم يخبر عن مجيء رجل موعود لإحياء الإسلام فحسب، بل بيّن العلامات التي تسهل بها معرفته على المسلمين. فقال إن هذا الموعود سيكون مصابًا بمرضين: أحدهما يكون في أعلى جسده والآخر في أسفله (أبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، ومسند أحمد: الجزء الثاني ص ٤٠٦). وأما لونه وشعره فهو "آدَمُ كأحسن ما ترى من الرجال، سَبْطُ الشعرِ". إنه من عائلة الحرّاثين. في كلامه لكنة. سيضرب يده على فخذه أثناء الكلام. سيظهر من قرية اسمها كَدعة.. أي قاديان (البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل واذكر في الكتاب مريم، أبو داود: كتاب المهدي، أحوال الآخرة للحافظ محمد (بالأردية) ص ٢٣، وينابيع المودة: الجزء الثالث ص ٩١). سيكون هو المسيح والمهدي في وقت واحد (ابن ماجة: أبواب الفتن، باب شدة الزمان). وسيظهر في أيام غلبة المسيحية على الطوائف الأخرى (الترمذي: أبواب الفتن، باب في فتنة الدجال)، وحين تصبح الحدود التي فرضها الإسلام متروكة. ويكثر عندئذ الميسر والقمار. ويرى الأغنياء إخراج زكاة أموالهم ثقلاً لا داعي له. ستصاب الدول الإسلامية بالضعف والانحطاط (مشكاة المصابيح: كتاب العلم، والترمذي: أبواب الفتن، باب ما جاء في أشراط الساعة، وابن ماجة: أبواب الفتن، باب بدأ الإسلام غريبًا). ستكثر في ذلك العصر النساءُ، وسيفوَّض إليهن من بين الأعمال التجارية بيع السلع. سيلبسن ثيابًا تكشف من أجسادهن ما كان الأولون يعتبرونه عورة. (الترمذي: أبواب الفتن، باب ما جاء في أشراط الساعة، ومسند أحمد: الجزء الأول ص ٤٠٧-٤٠٨، والجزء الثاني ص ٢٢٣)

وليس هذا فحسب، بل لقد أخبر النبي ﷺ أن هذا الموعود سيظهر من الشرق. فتكثر في زمنه أمراض شتى (أبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، وابن ماجة: أبواب الفتن، باب دابة الأرض). وتُظلم الشمس والقمر.. أي ستنكسف الشمس في شهر رمضان في ثاني يوم من أيام كسوفها، وينخسف القمر في أول ليلة من ليالي خسوفه في الشهر نفسه. وقد ركّز النبي ﷺ على هذه العلامة لدرجة أنه قال إن هذه العلامة لم تظهر قط كآية على صدق أي شخص ادعى المهدوية من قبل. (الدارقطني: كتاب العيدين، باب صفة صلاة الكسوف والخسوف وهيئتهما).

ولو ألقينا على هذه الأنباء كلها نظرة شاملة لوجدناها لا تنطبق إلا على هذا العصر. ولا نجد أحدًا مصداقًا لهذه الأنباء إلا مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية الذي أعلن أنه المسيح الموعود والمهدي المعهود، والذي تحققت هذه النبوءات كلها في زمنه. إذًا فهذا هو العصر الذي جاء خبره في القرآن الكريم والحديث الشريف وفي كلام الأنبياء السابقين، وإن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية هو الموعود الذي لم يبرح الناس ينتظرونه منذ القرون. يقول حضرته عليه السلام ما تعريبه:

"إن المهمة التي قد أقامني الله تعالى للقيام بها هي أن أقوم بإزالة ذلك الخلل الحاصل بين الله وخلقه، وأوطّد بينهما صلة المحبة والإخلاص ثانية؛ وأن ألغي الحروب الدينية بإظهار الحق مُرسيًا دعائم الصلح؛ وأن أكشف الحقائق الدينية التي قد اختفت عن أعين الناس؛ وأن أقدم نموذجًا للروحانية التي صارت مدفونة تحت ظلمات النفوس؛ وأن أكشف، بالعمل لا باللسان فحسب، تلك القوى الربانية التي تسري إلى داخل الإنسان وتتجلى فيه نتيجة إقباله على الله تعالى أو نتيجة الدعاء؛ وفوق كل هذا، أن أغرس في القوم من جديد غراسًا خالدًا للتوحيد الخالص النقي اللامع الخالي من أي شائبة من شوائب الشرك. بيد أن هذا كله لن يتم بقوتي أنا، بل بقدرة ذلك الإله الذي هو رب السماوات والأرض". (ليكچر (محاضرةُ) لاهور، الخزائن الروحانية مجلد ٢٠ ص ١٨٠)

إذًا فقول الله تعالى ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ لا ينبئ عن انحطاط الإسلام فحسب، بل يخبر أيضًا أنه في ذلك الزمن المظلم الذي يتيه فيه الباحثون عن الروحانية في الظلمات كالعميان، يبعث الله تعالى مأمورًا من عنده في بلاد الشرق، فيبدّد بأشعته النورانية ظلمات الوساوس والشكوك، ويروي الأرض المجدبة، ويُخرج خضرة الروحانية والتقوى؛ ليتحول العالم الذي أصبح كغابة قد جفت أشجارها إلى حقل مخضرّ نَضِر، ولتعود إلى الناس الحياة والحبور، فينالوا الراحة الحقيقية التي لا تتيسر أبدًا بدون حب الله ولقائه عز وجل. فجاء ذلك الزمن الذي وُضع فيه الأساس لإحياء الإسلام ثانية، وفاض نهر رحمته من شواطئه ليروي أراضي

القلوب الجدباء. فلن يفلح الآن إلا الذين ينتفعون من هذا الماء السماوي ولا يعرضون عنه إباءً واستكبارًا.

ثم بين الله تعالى أن نــزول الماء المادي ثانية يتسبب في خروج أنواع الثمار المادية من نخيل وأعناب وما إلى ذلك. فمنها ما تأكلون ومنها ما تنتفعون به بطريق آخر. وعلى سبيل المثال، تستخرجون من ثمر الشجرة التي تنبت من طور سيناء أي الزيتون زيتًا، كما تستعملونه كإدام مع الأطعمة الأخرى، وبالمثل تمامًا فإن نــزول الماء الروحاني من جديد يُنبت صنوف الثمار الروحانية الطيبة.

وقد أشار الله تعالى بذلك إلى نفس الموضوع الذي هو قيد البحث أي إحياء الإسلام ثانية، فقال لا تظنوا شجرة الإسلام بستانًا لا ثمر فيه. كلا، بل إنه بستان يؤتي أكله كل حين بإذن ربه. وكلما تطرق إليه الفساد بعث الله لإزالته خادمًا من غلمان المصطفى ﷺ يكون ثمرة من ثمار روحانيته ﷺ. فمثلاً في هذا العصر الذي كانت الدنيا تنكر فيه المعجزات والآيات قال مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام متحديًا معارضي الإسلام في بيت شعر لــه بالفارسية:

کرامت گرچه بے نام ونشاں است
بیا بنگر ز غلمان محمد

(استفتاء (بالأردية) الخزائن الروحانية مجلد ١٢ ص ١٢٣)

أي إذا كنتم لا تجدون في هذا الزمن نموذجًا للمعجزات والآيات في الدنيا، فتعالوا وشاهدوا هذه الكرامات من غلمان محمد ﷺ.

وقد ذكر النبي ﷺ نفسه هذه النعمة الربانية العظيمة فقال: "إن الله يبعَث لهذه الأُمّة على رأس كل مئة سنة مَن يجدّد لها دينَها" (أبو داود: كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المئة).. أي أن الله تعالى سيقيم لأمّتي على رأس كل قرن معلّمين من عنده لإزالة شتى السيئات التي ستتسرب إلى الإسلام بمرور الأيام، فيتجلى للناس وجهُ الإسلام الأغر المنــزه عن كل نقص وعيب مرة ثانية.

هذا، وقد ذكر الله تعالى هنا الزيتون لأنه ينفع كإدام، كما أن زيته يحفظ المخللات من الفساد مدة طويلة. وهكذا فقد أومأ الله تعالى بذلك إلى أنه تعالى لن يُطعمنا بواسطة الإسلام صنوف الثمار فحسب، بل سيقيم فينا تعليمًا سيظل

محفوظًا من التعفن والفساد. فترى أن التعليم الذي أتى به موسى وعيسى – عليهما السلام – قد أصبح عقيمًا عديم الجدوى، ولكن التعليم الذي أتى به محمد رسول الله ﷺ قائم حتى اليوم، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وليس بوسع إنسان أن يغيّر حتى حركة واحدة من حركات القرآن الكريم.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٢﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

**التفسير**: أي أنكم ترون كيف نخرج من الأرض الميتة خضرة تأكلها الأنعام، ثم نمرّر تلك الخضرة عبر بطونها فتتحول إلى غذاء نافع لكم. وبالمثل فمما لا شك فيه أن العقل الإنساني يأتي بأنواع الخطط والأفكار، أما أن تصير هذه الأفكار سامية ومفيدة وخالية من كل نقص وعيب فهو أمرٌ يختص بالله تعالى وحده. إن الله الذي يمرر الخضرة في ماكينة الأنعام ويحوّلها لبنًا خالصًا، إذا ما تجلى على إنسان كامل العقل وأعانه بالوحي العالي المستوى، جاء بتعليم سام يربي الإنسان الروحاني كما يربي اللبن، حيث يُنـــزع من ذلك التعليم كل ما هو بمنـــزلة الفرث ويُطرَح عنه بعيدًا.

الواقع أن الله تعالى قد جعل العالم الروحاني مشابهًا للعالم المادي. فإننا نرى في العالم المادي أن الأرض بحاجة إلى مطر من السماء لتخرج ما فيها من قوى النماء، وكذلك فإن العقل البشري أيضًا بحاجة إلى مطر الوحي والإلهام. وكما أننا نرى في العالم المادي مرة بعد أخرى بأنه إذا انقطع المطر من السماء فترة طويلة جفّت الآبار، وذبلت الأشجار، وتحولت الخضرة حطامًا، ولم تحمل البساتين ثمارًا، كذلك إذا انقطع نـــزول مطر الوحي والإلهام من السماء الروحانية مدة طويلة توقف العقل الإنساني عن التطور، ولم يستطع وحده هداية الناس. إنما ضل الفلاسفة لأنهم اعتبروا العقل وحده هاديًا لهم. لقد ظنوا أنهم قادرون على سنّ القوانين لصالحهم

بأنفسهم، ولا حاجة بهم إلى أي دين أو وحي. والواقع أن الطبيعة نفسها تبطل نظريتهم هذه. فبرغم أن الأرض مزودة بقوى عظيمة، فإنها بحاجة إلى المطر. فإذا نـــزل المطر أخذت ينابيع الأرض تتفجر، ونباتها يخرج، وأشجارها تهتز، وأزهارها تُفرح الوجدان والقلبَ، وتفوح بشذاها الطيب. فتسرّ العيونَ خضرتُها، ويبدو للرائي كأن الحياة أخذت تدبّ في كل شيء ثانية، حتى إن الطيور في جو السماء أيضًا تغرد من فرط السرور، ويتنفس الناس في سكينة وحبور، وتتهلل وجوه القوم الذين كانت قلوبهم ترتجف خوفًا من الجفاف والمجاعة، إذ يدركون أن الله تعالى قد أنقذهم من الهلاك بإنـــزال المطر. فكما أن الأرض بحاجة إلى مطر السماء في العالم المادي، فإن العقل الإنساني أيضًا بحاجة إلى الوحي والإلهام في العالم الروحاني. وبتعبير آخر، فكما أن عين الإنسان لا تعمل بدون ضوء الشمس، كذلك لا ينفع عقل الإنسان بدون وحي الله وإلهامه. فلولا عون الله للإنسان من السماء لما قدر على شفاء غليله الذي أودعه الله فطرتَه، والذي يجعله يبحث دومًا عن ضالته في كل جهة ومكان. انظروا إلى أوروبا، فكم أحرز أهلها التقدم في العلوم المادية. لقد بلغوا أوج الكمال في العلم حتى اعتبروا الدين عبثًا بالنسبة للحياة الإنسانية. وعلى النقيض ترون عندهم مشهدًا غريبًا أيضًا، إذ لو قال لهم أحد إن بإمكانه معرفة الغيب بقراءة الكف لأسرع إليه كبار محاميهم ومثقفيهم وأطبائهم ومهندسيهم، وجلسوا أمامه يتوسلون إليه أن يخبرهم بمستقبلهم بقراءة أكفّهم؛ ثم يصدّقونه فيما يقول معتبرين قوله قدرًا مقدوراً. إن حالتهم هذه تدل بكل وضوح وجلاء على أن الله تعالى قد جعل في فطرة الإنسان نوعًا من الظمأ والعطش، حيث يريد معرفة حقيقة الكون والاطلاع على أسراره. لا شك أنهم قد حكموا البحار لقرون طويلة، وقاموا بفحص كل جرعة من مياهها، وسبروا أغوارها. لقد غطسوا حتى قعر البحار ليستخرجوا لآلئها، ورموا سهامهم إلى السماء ليعرفوا أسرار أجوائها العليا. لقد فتشت أساطيلهم كل شبر من الأرض بحثًا عن الجزر، واستولوا على البلاد والأقطار. ولكن كونهم لا يزالون يمدون أكفهم أمام الناس لمعرفة علم الغيب يشكل دليلاً أكيدًا على أن العلوم المادية قاصرة عن جلب السكينة والاطمئنان لهم،

وأنهم، رغم بُعدهم عن الدين، يشعرون في باطنهم رغبة عارمة لمعرفة ما وراء الطبيعة. إن هذا العطش أو الرغبة هو الذي يدفع بالإنسان إلى طريقٍ تارةً وإلى طريق آخر تارة أخرى. فمنهم من يسعى لمعرفة أخبار المستقبل بالنظر في النجوم، ومنهم من يرى أن قراءة الكف هي السبيل لمعرفة الغيب. ومنهم من يتفاءل بحبات السُّبحة، فإذا خرجت الحبات بعدد فرد أيقن بالنجاح، وإذا خرجت بعددٍ شفعٍ أطرقَ رأسه موقنًا بالفشل. وكان العرب يتفاءلون بالسهام حينًا وبأشكال الطيور وأصواتها حينًا آخر. فلو جلست البومة على جدار بيتهم أيقنوا بهلاكهم ودمارهم، وإذا جلس على بيتهم غراب قالوا لا بد لنا الآن من سفر.

مجمل القول إن كل إنسان مجبولٌ على رغبة معرفة أسرار الكون وغوامض العالم العلوي. وإنها رغبة عارمة لدرجة أنك تجد في بلادنا كثيرًا من الناس الذين يقومون بممارسات شاقة ليتمكنوا من السيطرة على الجن. ولو بلغهم أن فلانًا يسيطر على الجن وصلوا إليه متكبدين سفرًا طويلاً شاقًا، وتوسلوا إليه في تذلل وهوان أن يعلّمهم كيف يسيطرون على الجن حتى يخرجوا بمساعدتهم من كافة مشاكلهم التي تحيط بهم. فمنهم من يبحث عن "الاسم الأعظم"، و منهم من يبحث عن "عمل الحُبّ" و"عمل التسخير" هائمًا على وجهه في كل مكان.

إذًا، فلو كانت العلوم المادية كافية لشفاء غليل الإنسان فلماذا نرى الرجل الأوروبي "العاقل" يجري وراء هذه الأمور، ولماذا نجد الرجل الآسيوي "الجاهل" أيضًا يتمنى تحصيل هذه العلوم. إن هذه الظاهرة تؤكد وجود شعور فطري في كل إنسان بقوة عُلوية. لا شك أن ثقل الماديات يكبت هذا الشعور الفطري في الإنسان أحيانًا، ولكن محاولته هذه تدل بجلاء على أن عقله غير الواعي يقوم بعمله عند غفلة عقله الواعي، فيبحث عن أنواع الطرق ليجد ضالته. حتى إنك ستجد الملحد ينكر وجود الله تعالى عادة، ولكن كلما فاجأته مصيبة قال من تلقائه "يا الله"، فإنه لا يدعُو لنصرته أحدًا إلا الله تعالى. وهذا يدل بكل تأكيد على أن فطرته تسلم بوجود البارئ تعالى، ولكن ثقل الماديات كان قد مسخ فطرته وغطاها بشتى الحجب، وما إن زالت تلك الحجب إلا ولمع فيه نور الفطرة وأخذ ينادي ربه ﷻ.

إذًا فإن الله تعالى قد جعل في كل إنسان عطشًا للقائه تعالى، وإن ظاهرة بحث الإنسان عن ضالته تكشف أنه لولا أن الله تعالى أنـــزل وحيه لهدايته لظل تائهًا في هذه المتاهات على الدوام، وما وجد الله أبدًا. لقد منّ الله عليه إذا دله بواسطة الأنبياء على طريق الهداية التي إذا سلكها وصل إليه تعالى بكل سهولة، ونجا من المصائب بكل أنواعها.

وهذا الموضوع نفسه قد بينه الله تعالى في هذه الآيات بلغة المجاز والتمثيل، لافتًا أنظار الناس إلى اللبن، فقال كم هو لذيذ هذا اللبن وكم هو مفيد من أجل نماء قواكم. ولستم الذين تصنعون هذا اللبن، بل الله تعالى هو الذي يُدخل الكلأ والعشب في ماكينة الحيوان، فيحوّله لبنًا. كذلك فإنه مما لا شك فيه أنكم تتمتعون بالعقل، ولكنه كالكلأ، وما لم ينـــزل ماء الوحي على عقلكم فإنه سيظل شيئًا حقيرًا كالكلأ، ولكن حين ينـــزل الله عليه ماء وحيه ينتج عنه تعليم ثمين كاللبن، ينمّي قوى الناس العقلية ويوصلها إلى الدرجات العلى حتى إنهم يصيرون بأنفسهم مهبطًا للوحي والإلهام، فيجدون به شفاء لغليلهم ويشعرون بلمعان جديد في أرواحهم.

وَلَقَد أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٦﴾

**شرح الكلمات:**

**جنّة**: الجِنّة: طائفة من الجنّ؛ اسمٌ من الجنون (الأقرب).

**التفسير**: إن أعداء الأنبياء والخلفاء يعارضونهم باسم الحرية دائمًا، ويقولون كيف نرضى بأن يحكمنا بشر مثلنا؟ إنما يريد أن يتفضل علينا. وكأنهم يقولون: إنه لمما يتنافى مع الإنسانية والحرية أن يكون هناك خليفة يرشد الجماعة كلها ويطيعه الناس كلهم. فترى أن الله تعالى لما أمر الناس بطاعة آدم والانقياد لـــه كلية، قام إبليس في وجه آدم باسم الحرية وقال لله تعالى ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾(ص:٧٧).. أي كيف أطيع آدم وأنا أفضل منه. فعندي نارُ الحرية، وأما آدم فعنده عقلية العبيد. فليدخل في طاعته من يريد قتل نـــزعة الحرية فيه، أما أنا فلا أستطيع ذلك أبدًا.

وهذه هي النعرة التي يرفعها دُعاة الفوضوية هذه الأيام. يقولون لا يمكننا أن نكون عبيدًا للآخرين. سنقوم بالثورة عليهم لنحافظ على روح الحرية فينا. ولما كان من المستحيل أن يقوم نظام العالم بدون روح التعاون بين الناس وبدون طاعة الحكام، فإن أصحاب النـــزعة العصيانية هم موضع كراهية عند الدين، كما أن الحكومات الدنيوية أيضًا تلقي القبض عليهم وتعاقبهم بشتى العقوبات. وفي عصر النبي ﷺ أيضًا قد عادى الإسلامَ هؤلاء الذين يرفعون هتاف الحرية عداء شديدًا، وكان بعضهم من أقارب النبي ﷺ نفسه مثل أبي لهب الذي كان عمًّا له ﷺ، والذي قال الله تعالى فيه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(المَسَد:٢). وإنما سمي أبا لهب لكونه سيدًا لذوي الطبائع النارية، إذ لم يكن هو ولا أصحابه مستعدين لطاعة النبي ﷺ، لأن هذا كان يتطلب منه التخلّي عن سيادته والدخول في زمرة خدامه ﷺ؛ ولكنه ما كان ليرضى بذلك أبدًا.

وقد حدث هذا في زمن نوح عليه السلام أيضًا. فلما دعا نوح قومه إلى توحيد البارئ تعالى رفضوه. وقد حاولوا إضلال الآخرين بقولهم إنما هو بشر مثلكم، وليس فيه ما يوجب علينا طاعته. إنما يقصد برفع هذا الهتاف المعارض للقوم كلهم أن يجمع حوله أناسًا يقوّي بهم حزبه ويتسيد علينا. ولكنا لن نسمح لـــه بذلك،

ولن نتخلى عن حريتنا مثقال ذرة ولو متنا في هذا السبيل. ثم إن هؤلاء تقدموا خطوة أخرى وقالوا لو أُنــزلتْ علينا ملائكة من السماء حكّامًا علينا لرضينا بهم، ولكن من المحال أن نقبل حكومة نبي أو خليفة هو بشر مثلنا، إذ ليس لــه أي فضل علينا.

إنه لمن المستغرب أن أنبياء الله تعالى لم يزالوا منذ البداية يدعون الناس إلى توحيد البارئ تعالى، وما انفكّ أعداؤهم يقولون يجب أن يأتي لهدايتنا كائن من جنس آخر يفوق البشر؛ ومع ذلك لم يزل الله يبعث البشر لهداية البشر. ذلك لأن الرسول لو كان من جنس آخر لما كان قدوة للبشر، إذ ليس بوسع الإنسان أن يقلّد الأسد، كما ليس بوسع الأسد أن يقلّد الإنسان.

وقد يكون قولهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْــزَلَ مَلائِكَةً﴾ بمعنى آخر.. أي لِمَ لم ينــزل مع هذا الرسول ملائكة حتى نراهم فنعلم أنه صادق. لقد سمعوا من الأولين أن الملائكة تنــزل على الأنبياء، فظنوا أن هؤلاء الأولين كانوا يرون الملائكة النازلة، فشرعوا يقولون عن نبيهم إذا كان هذا قد بُعث لأن يهدينا فلم لم تنــزل معه الملائكة كما نــزلت مع الأنبياء الذين خلوا من قبل. إننا لم نسمع من الأولين بمثل هذا النبي الذي يأتي هكذا في صمت وسرية.

بيد أن النجاح كان حليفًا لتعليم الأنبياء دومًا رغم المعارضة والعداء، إذ لا يصلح للقبول إلا ما يأتي من عند الله تعالى. إذًا، فعلى المرء تلبية النداء الرباني أيًّا كان الشخص الحامل لهذا النداء، معتبرًا الحرية الخاطئة المفرطة غُلاًّ من أغلال اللعنة.

ثم يخبرنا الله تعالى أنه لما رأى المعارضون أن بعض القوم يدخلون في جماعة نوح عليه السلام رغم هتافاتهم الداعية إلى الحرية أخذوا يقولون ﴿إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾.. أي أنه ليس برجل الدين، بل هو على صلة بالجن، فينبغي أن يعزى نجاحه إلى الجن لا إلى التأييد الرباني. ثم قالوا ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾.. أي انتظروا قليلاً لتروا مصيره.

إن هذا هو نفس السلاح الذي لم يبرح معارضو الأنبياء يستخدمونه ضدهم عبر العصور كلها، حتى إن النبي ﷺ نفسه قد سمي مجنونًا من قبل المعارضين، كما

قال بعضهم إنما تنـــزل عليه الجن (السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الأول: ذكرُ ما لقي رسول الله ﷺ من قومه). والقسيسون المسيحيون حين يعلمون أن النبي ﷺ قد اتُّهم بالجنون من قبل معارضيه لا يملكون أنفسهم فرحًا، ويقولون لو لم يكن بمحمد (ﷺ) خلل عقلي لما سماه أعداؤه مجنونًا؟

(A comprehensive commentary on the Quran Vol.3 p.15)

ولكن هؤلاء القسيسين ينسون أن المسيح نفسه، الذي يعتبرونه "ابن الله"، قد رُمي بالخبل والجنون. فقد ورد في الإنجيل:

"فحدَث أيضًا انشقاق بين اليهود بسبب هذا الكلام. فقال كثيرون منهم: به شيطانٌ وهو يهذي* . لماذا تستمعون لـــه؟" (يوحنا ١٠: ١٩-٢٠).

ثم إن هؤلاء يعتبرون بولس رسولاً، ويخبرنا العهد الجديد أنه هو الآخر قد رُمي بالجنون حيث ورد:

"وبينما هو يحتجّ بهذا قال فستوسُ بصوت عالٍ: أنت تهذي◈ يا بولس. الكتب الكثيرة تحوّلك إلى الهذيان" (أعمال الرسل ٢٦: ٢٤)

فلو جاز القول، بناء على اتهام الناس النبي ﷺ بالجنون، أنه ﷺ كان بالفعل مصابًا في عقله – معاذ الله – فلم لا يسمي المسيحيون المسيح عليه السلام مجنونًا، و لم لا يعتبرون بولس أيضًا من المجانين؟ وإذا كان بالمسيح عيب عقلي فعلاً بحجة أن الناس قد رموه بالجنون، فكيف صار مخلِّصًا للعالم؟

الحق أن الدنيا إنما ترمي الأنبياء بالجنون لأنهم يعرضون عليها تعليمًا مخالفًا لتيار عصورهم كلية، يستحيل أن يخترعه العقل الإنساني؛ فحين يسمع العلماء هذا التعليم يهبّون لمعارضته، وعندما يبلغ خبره الأثرياء يستشيطون غضبًا، وحين يصل إلى أسماع العامة يثورون غيظًا. فبما أن الأنبياء مؤيَّدون من عند الله تعالى الذي يقف بجانبهم ويساندهم، فلا يكترثون لمخالفة المعارضين ولا يضيقون ذرعًا من

* قد ورد في النسخة الأردية مكان الكلمات التي تحتها الخط ما تعريبه: إنه مجنون. *(المترجم)*

◈ قد ورد في النسخة الأردية مكان الكلمات التي تحتها الخط ما تعريبه: أنت مجنون. تحوّلك إلى الجنون. *(المترجم)*

اضطهاد المعادين، بل لا يبرحون يؤدون مهمتهم. وهذا ما يصيب الناسَ بالحيرة والعجب، فلأنهم لا يدرون أن رب السماوات والأرض يؤيد أنبياءه ويساندهم، فيظنون أنهم مجانين.. أعني أن الأنبياء لا يبرحون ينشرون توحيد الله تعالى غير مكترثين للمصائب التي تُصبّ عليهم، كالمجنون الذي لا يبرح عاكفًا على ما هو عليه ولا يبالي بضحك الناس عليه ولا بمعارضتهم له. فلما رأى أهل مكة أنهم قد اتخذوا كل تدبير لمنع محمد رسول الله ﷺ من وعظ التوحيد، وأنه لم يرتدع عن ذلك، ولم يتورع عن أن يعيب آلهتهم، أخذوا يشيعون بين القوم أنه مجنون. فقال الله تعالى ردًّا على طعنهم هذا ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (القلم:٢و٣).. أي أننا نُقسم بالمحبرة والقلم وبكل ما يكتب بهما ونشهد أنك لست بمجنون بفضل ربك.. بمعنى أنه لو جمع الناس كل ما كُتب بالحبر والقلم حتى الآن وما سيُكتب في المستقبل من علوم ومعارف، ثم قارنوا بينها وبين ما أُوتيتَ من علوم لعلموا أن كفة معارفك هي الراجحة.

فإذا كان هؤلاء قد عُدّوا من كبار المخترعين أو العلماء أو الفلاسفة أو الفقهاء بسبب ما نشروا من علم، فكيف تُعَدّ مجنونًا وقد نشرت أضعاف ما نشروا من علوم ومعارف؟

إذًا، فهذا سلاح قديم لم يزل معارضو الأنبياء يستخدمونه على مر العصور؛ وبتعبير آخر، إنهم يسعون، كالغريق الذي يتشبث بالقشة، ليحولوا دون رقي الجماعات الإلهية برمي الأنبياء بالجنون. ولكن لا يفلح إلا رسل الله ﷻ في آخر المطاف، ولا يبقى للذين يتهمونهم بالجنون إلا الخيبة والخسران.

قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٧ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا

مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٣٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣١﴾

**شرح الكلمات:**

**التنّور**: الكانونُ يُخبَز فيه؛ كلُّ مَفْجَرِ ماءٍ؛ مَحفَلُ ماءِ الوادي (الأقرب). ومن معاني التنور وجهُ الأرض (تاج العروس).

**التفسير**: لما بلغت معارضة نوح عليه السلام ذروتها أوحى الله تعالى إليه أن اصنعِ سفينةً تحت رعايتنا وبحسب وحينا، إذ تعني "العين" الحفظ والحماية أيضًا كما ورد في القواميس. يقال "أنت على عيني" أي في الإكرام والحفظ" (الأقرب). ويقول الإمام الراغب: "فلانٌ بعيني أي أحفظه وأراعيه. ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بحيث نرى ونحفَظ. ومنه "عينُ الله عليك" أي كنتَ في حفظ الله ورعايته" (المفردات).

إذًا، فقوله تعالى لنوح ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ يعني أن الكافرين سيمنعونك من صنع السفينة، ولكننا سنحميك منهم ونجعلك من الفائزين. أما قوله تعالى ﴿وَوَحْيِنَا﴾ فهو إشارة إلى أن الأصل هو تقوى القلوب وهو الذي يحفظ من عذاب الله تعالى. فعليك بتجهيز تلك السفينة الروحانية أيضًا التي تُصنع باتّباع وحي الله تعالى، وينجو رُكّابها من عذاب الله تعالى.

وقد يراد بالفُلك هنا السفينة المادية أيضًا، إلا أن السياق يبين أنها قد أُريد بها جماعة نوح عليه السلام التي كان الكافرون يريدون الحيلولة دون تكوينها، إذ الحق أن جماعة النبي هي التي تتسبب في نجاة الناس إذا انضموا إليها.

أما قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فقد قال المفسرون أن هذا التنور كان لآدم عليه السلام (الرازي). ولكن قولهم هذا ليس إلا دليلاً على شغفهم بالقصص فقط، إذ لا ذكر لآدم في هذه الآيات. فمن معاني التنور في العربية "الكانونُ يُخبَز فيه؛ وكلُّ مَفْجَرٍ للماء؛ ومَحفَلُ ماءِ الوادي؛ ووجهُ الأرض".

غير أن أبا حيان يقول: قد يكون التنور هنا مجازًا كقول الرسول ﷺ عندما اشتدت الحرب: "حَمِيَ الوطيسُ"، والوطيس هو التنور. و"فارَ" و"حمِي" بمعنى واحد؛ قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾(المُلك:٨).. أي أن الكافرين حين يُلقَون في جهنم يسمعون لها صراخًا وهي في هيجان وغليان.

ويقول أبو حيان أن المراد من قوله تعالى ﴿وفارَ التَّنّورُ﴾ أن الماء فاض وانتشر في كل مكان.

وبناء على هذين المعنيين فالمراد من هذه الآية أنه لما حان عذاب الله تعالى تفجرت المياه من العيون أو فاضت على سطح الأرض وانتشرت في كل مكان.

وهذا العذاب لم يقع نتيجة تفجُّر العيون الأرضية فحسب، بل كانت السحب هي السبب الحقيقي له، كما يتضح من القرآن الكريم. أي بسبب هطول الأمطار الغزيرة انتشرت المياه في كل مكان، وتفجرت العيون بالمياه أيضًا، كما يحدث عادة عند كثرة الأمطار، حيث تتفجر الينابيع بالمياه كما تفيض الأنهار من شواطئها؛ فدمرهم ماء السماء وماء الأرض معًا. قال الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾(القمر:١٢و١٣).. أي فتحنا أبواب السحب بماء يجري بقوة، كما فجّرنا ينابيع الأرض أيضًا، فاجتمع ماء السماء مع ماء الأرض على أمر كان قدرًا مقدورًا من عندنا.. أي أخَذ ماء السماء وماء الأرض يُدمران الناس.

ويقول الله تعالى في مكان آخر في القرآن الكريم إنه لما انتهى وقت العذاب وحل الدمار المقدور ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(هود:٤٥).. أي قلنا عندئذ للأرض ابتلعي ماءَكِ الآن، كما أمَرْنا السماء أن تتوقف عن الإمطار،

وغارت المياه في الأرض، وقُضي الأمر وانتهى؛ ورسَت السفينة على جبل يدعى الجوديّ، وقيل للملائكة اكتُبوا الهلاك للقوم الظالمين.

فالثابت من القرآن الكريم أن الماء هطل من السماء بغزارة، كما تفجرت عيون الأرض بالمياه، كما يحصل في المناطق الجبلية، فعند هطول الأمطار بغزارة تزداد مياه عيون الأرض أيضًا نتيجة ذوبان الثلوج على الجبال العالية. والثابت من القرآن الكريم والتاريخ أيضًا أن نوحًا عليه السلام كان قاطنًا في منطقة جبلية، حيث قال لابنه ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ۞ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾(هود:٤٣و٤٤).. أي ظن ابنه أن بإمكانه أن يصعد قمة الجبل بسرعة ليعتصم من العذاب. فهذا يدل بجلاء أن نوحًا كان يقيم في واد بين الجبال؛ وليس بمستبعد في مثل هذه المناطق أن يرتفع سطح الماء كثيرًا وبسرعة مفاجئة.

قصارى القول إن الله تعالى قال لنوح عندما ينـــزل المطر بغزارة وتتفجر عيون الأرض وتصبح المنطقة كالبحيرة، فأَركِب في السفينة زوجين من كل شيء، كما أدخِلْ فيها أهلَك أيضًا. والزوج في العربية هو "كلٌّ واحدٍ معه آخرُ من جنسه" (الأقرب)، فالمراد من "زوجين" هو الذكر والأنثى من كل نوعٍ، وليس المراد شيئين من أي نوع، ومن أجل ذلك قد أضاف الله تعالى هنا لفظ ﴿اثْنَيْنِ﴾ ليبين أن المراد من الزوجين هو اثنان من جنس واحد، لا زوجان من كل شيء.. أي أدخِلْ في هذه السفينة المادية أو في هذه الجماعة الإلهية الذكر والأنثى من كل جنس.

علمًا أن قوله تعالى ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ لا يعني أن يأخذ نوح معه كل حيوان موجود على الأرض، إذ يستلزم ذلك القول أن نوحًا عليه السلام قد حشد في سفينته ملايين الملايين من حشرات الأرض والملايين من وحوشها ودوابها وطيورها؛ ففي هذه الحالة كان عليه أن يصنع سفينة بحجم بلاده؛ وهذا خلاف للعقل. إذًا، فلفظ ﴿مِن كُلٍّ﴾ لا يعني من كل الأشياء، بل من كل شيء ضروري. ومثاله قول الله تعالى في القرآن الكريم عن ملكة سبأ ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾(النمل:٢٤)، والواضح أن كلمات ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هنا لا تعني أنها كانت تملك مُلكَ سليمانَ وجنوده أيضًا، وكانت تحكم الهندَ والصين وأمريكا أيضًا، بل المراد أنها كانت قد

أُوتيت كل شيء كانت بحاجة إليه. وهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.. أي خذْ معك في السفينة الذكر والأنثى من كل الحيوانات التي أنت بحاجة إليها، وليس المراد أن يأخذ معه في السفينة الفيلةَ والأسود والنمور وغيرها. إذًا، فلفظ ﴿اثْنَيْنِ﴾ هو للتأكيد فحسب، ولا يفيد أي معنى جديد آخر، بل المراد منه الذكر والأنثى اللذان يستمر بهما النسل.

قد يقول هنا قائل: نفهم قول الله تعالى ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ إذا اعتبرنا الفُلك سفينة مادية، ولكن إذا أُخذت السفينة بمعنى الجماعة فماذا سيعني قول الله هذا؟

فليكن معلومًا أن قول الله تعالى ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ في هذه الحالة سيعني أناسًا روحانيين من كل نوع.. والمراد: أَدْخِلْ في جماعتك أناسًا من كل الشرائح والطبقات، سواء الفقراء منهم والأثرياء والطبقة المتوسطة، غيرَ حافل بازدراء القوم لهم واحتقارهم إياهم.

ولو قيل: لم يكن بيد نوح عليه السلام أن يُدخل القوم في جماعته، بل كان هذا الأمر بيد هؤلاء أنفسهم، فالجواب أنه كان بوسع نوح أن يسعى لذلك. فمن المشاهَد أن بعض الناس يهتم لنشر الدعوة بين الأثرياء فقط، ومنهم من يعتني بالفقراء فحسب، ومنهم من يتوجه إلى الطبقة المتوسطة، ومنهم من يميل إلى العلماء، ومنهم من يتجه إلى أصحاب الحرف والمهن فقط، ومنهم من يرغب في المزارعين أو التجار فحسب. ومن أجل ذلك يقول الله تعالى لنوح عليه السلام أنه إذا أراد زيادة جماعته فعليه بنشر دعوته بين الناس من كل الشرائح والطبقات ممن يوجد فيهم روح التعاون.. أي يكونون كالأزواج. إذًا، ففي هذه الحالة لا تعني كلمة ﴿زَوْجَيْنِ﴾ الذكر والأنثى، بل يراد بها قوم يتوادّون ويتحابّون ويتعاونون، كما فعل رسول الله ﷺ في المدينة حيث آخَى بين المهاجرين والأنصار وجعلهم كلهم إخوانًا وكأنهم صاروا أزواجًا (البخاري: كتاب المناقب، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار). وهذا ما أوصى الله به نوحًا عليه السلام حيث أمره أن يخلق الأُخوّةَ في جماعته، ويجعل أتباعه القادمين من كل الشرائح إخوانًا وأخوات. ثم عليه أن يأخذهم جميعًا إلى مكان

واحد للإقامة معًا ليحظى هو وأصحابه بنصرة الله ولينـــزل العذاب على أعدائهم، لأنه تعالى لن يُنـــزل العذاب على القوم ما دام المؤمنون مقيمين بينهم مختلطين بهم؛ وذلك كما قال الله تعالى في القرآن الكريم لرسوله الكريم ﷺ ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(الأنفال:٣٤).

أما قوله تعالى لنوح ﴿وَأَهْلَكَ﴾.. أي أَرْكِبْ معك في السفينة أهلك أيضًا.. فهو بمنـــزلة المدح والثناء على أبي بكر ﷺ. ذلك لأن الله تعالى قد عدّ نبينا محمدًا رسول الله ﷺ مثيلاً للأنبياء كافة، فكان مثيلاً لنوح أيضًا. وقد عمل النبي ﷺ بهذه الوصية الربانية لنوح حيث اصطحب معه أبا بكر في الهجرة.. وهذا يدل على أن أبا بكر كان من أهله ﷺ (السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثاني باب هجرة الرسول ﷺ). فالذين يزعمون أن أبا بكر (ﷺ) كان – والعياذ بالله – منافقًا ومغضوبًا عليه، مخطئون وعلى الباطل، إذ لو كان الأمر كذلك لما اصطحبه النبي ﷺ خلال الهجرة خلافًا لهذه الآية.

ثم يقول الله تعالى لنوح عليه السلام ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي أنه حين يقرر الله تعالى إهلاك الكافرين، فلا يسمح للنبي حتى بالدعاء لهم. ومثاله في القرآن الكريم ما ورد بصدد هلاك قوم لوط، حيث يخبر الله تعالى أنه حين علم إبراهيم بقرارنا بهلاك القوم، وجاءته البشرى بولادة إسحاق ويعقوب عنده، أخذ ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾(هود:٧٥).. أي بدأ يدعو الله تعالى أن لا يهلكهم بالعذاب. فأوحى الله إليه ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾(هود:٧٧).. أي يا إبراهيم لا تشفع لهم الآن، لأنه قد صدر الآن الحكم النهائي من ربك في شأنهم. لقد بلغ هؤلاء الكافرون من التردي والسوء درجة أنه لا بد أن يحيطهم العذاب الذي لا مرد لـــه. وهذا يعني أنه كان قد جاء وقت نُهي فيه إبراهيم عن أن يدعو لهم أيضًا.

هذا، وقد بين الله تعالى بقوله ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنه لا يُهلك الناس بدون سبب، إنما يهلكون من جراء ظلمهم المتكرر. إن الأمم التي هلكت في الدنيا حتى اليوم إنما هلكت لأنها أصبحت ظالمة.. بمعنى أنهم إما تغافلوا عن أحكام الدين، أو أنهم أهملوا

قوانين الرقي المادي؛ فإعراضهم عن أحكام الدين عرّضهم للعذاب الشرعي، وإهمالهم للقوانين الطبيعية جعلهم عرضة لصنوف العذاب الطبيعي. ولكن من عظيم رحمة الله التي لا مثيل لها أنه لم يهلك حتى اليوم قومًا ظالمين ما لم يتم الحجة عليهم و لم يحذرهم من أخطائهم بواسطة رسول بعث فيهم. ومثاله ما فعل الله بقوم نوح عليه السلام حيث نصحهم ليلا ونهارًا، ولكنهم لم يتورعوا عن العصيان، فقضى الله عليهم في نهاية المطاف.

ثم قال الله تعالى لنوح ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.. أي أن إنقاذي إياك من اضطهاد الأعداء لفضلٌ عظيم منا، لذا فعندما تفرغ من صنع السفينة وتركب فيها، أو حينما تكتمل جماعتك وتُدخل فيها كافة الأرواح السعيدة، فعليك أن تقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكرًا لله تعالى إذ وفّقك لإنجاز مهمتك على ما يرام.

تقول التوراة لما توقف الطوفان بعث نوح عليه السلام الغراب أولاً ليرى هل قلّت المياه على وجه الأرض أم لا، ولكن وجه الأرض كان مغطى بالمياه، فكان الغراب يرجع إلى السفينة كل يوم. فأرسل الحمامة بعد أيام، ولكنها لم تجد على الأرض مكانًا تنـــزل فيه، ورجعت أيضًا إلى السفينة. فلبث نوح سبعة أيام أخرى وعاد فأرسل الحمامة من السفينة، فأتت الحمامة إليه في المساء بورقة زيتونٍ خضراء في منقارها. فعلِم نوحٌ أن المياه قد قلّت عن الأرض (انظر التكوين ٨: ٧-١١).

لقد تبين من هنا أن الله تعالى بشر نوحًا عليه السلام، من خلال ورقة الزيتون بأن أعداءه قد صاروا مغلوبين إلى الأبد. وذلك كما قدّم الله تعالى الزيتون دليلاً على صدق محمد رسول الله ﷺ في سورة التين، حيث حذر أعداءه ﷺ بأن بإمكانهم أن يطردوا محمدًا من وطنه، ولكن عليهم أن يَتَذَكّروا أنهم سيُدمَّرون كأعداء نوح، وأن محمدًا رسول الله ﷺ سيتلقى بشارة نجاحه وانتصاراته بواسطة ورقة الزيتون. فقد ورد أن من رأى في المنام ورقة الزيتون فإنه سيتمسك بالعروة الوثقى بقوة (تعطير الأنام: زيتون). فكان في تلقّي النبي ﷺ بشارةَ نجاحه بواسطة ورقة الزيتون دليلٌ على أن الله تعالى سيهب لـــه جماعة قوية الإيمان تبلغ الذروة في التضحية والطاعة،

ولن تحيد عن جادة الحق أبدًا من جراء الاضطهاد من أي نوع كان. وهذه هي البشارة التي أوتيها نوح عليه السلام من خلال ورقة الزيتون، حيث أُخبر، حتى قبل أن ينـــزل من السفينة، بقوة إيمان جماعته ورقيها في المستقبل. فأمره الله تعالى أن يحمده ويشكره على أنه قد تمكن من إنجاز مهمته فضلاً منه ورحمة.

ثم أمر الله تعالى نوحًا ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنـــزِلْنِي مُنـــزلاً مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنـــزِلِينَ﴾. ولو اعتبرنا الفُلك سفينة مادية فالمراد: يا نوح ادْعُ ربك وقلْ يا رَبِّ أَرْسِ هذه السفينة في مكان مبارك. أما إذا أريدَ بالفُلك جماعته فالمعنى: يا نوح ادع ربك وقُلْ: يا رَبِّ وَفِّقْ جماعتي لتحقيق غايتها ولإحراز رقي يكون مباركًا من حيث الدين والدنيا.

المكان الذي استقرت فيه سفينة نوح قد سماه القرآن الكريم ﴿الْجُودِيِّ﴾ (هود:٤٥)، بينما ورد في التوراة أن اسمه "أراراط"، حيث جاء: "واستقرّ الفُلكُ في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبالِ أراراط" (التكوين ٨: ٤).

ونجد هنا اختلافًا في الظاهر بين الاسمين، ولكن التدبر يكشف لنا أنه ليس ثمة أي اختلاف. الحق أن الجُود في العربية هي الرحمة والإحسان (تاج العروس). إذًا، فقد سمى الله تعالى ذلك المكان ﴿الْجُودِيِّ﴾ ليشير إلى أنه مكان تجلت فيه رحمة الله ومنّته. وهذا ما يعنيه لفظ "أراراط" أيضًا، فهو مركب من كلمتين هما "أرى" و"راط". و"راطَ" معناه طلب الملاذَ (الأقرب)، فالمراد من "أراراط": أرى الملاذ أمامي. وهذا يعني أن التوراة تسمي ذلك المكان ملاذًا، بينما يسميه القرآن الكريم مهبط رحمة الله ومنّته حيث نال نوح عليه السلام الملاذ وصار في مأمن من شر الأعداء. فثبت أنه ليس ثمة اختلاف حقيقي بين الاسمين.

ثم يقول الله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.. أي أننا لم نَرْوِ هذا الحدث كقصة وأسطورة، بل فيه آيات كثيرة، ولا شك أننا نختبر عبادنا بالخير والشر.. بمعنى أن محمدًا (ﷺ) وقومه أيضًا سيمرّون بظروف مماثلة. وهذا ما حصل بالفعل، فكما اضطر نوح عليه السلام لترك وطنه نتيجة اضطهاد الأعداء، كذلك اضطر محمد رسول الله ﷺ للهجرة من مكة نتيجة تعرضه للتعذيب المتكرر. وكما أن

سفينة نوح عليه السلام استوت على جبل الجودي حيث وجد ملاذًا وصار مهبطًا لنعم الله تعالى، كذلك كانت المدينة بمنـــزلة الجودي الذي استقرت فيه سفينة النبي وأصحابه ﷺ. وكما أن نوحًا نال البشرى برقي جماعته وقوة إيمانها، بواسطة ورقة الزيتون، كذلك قد أعطى الله ﷻ محمدًا ﷺ في المدينة أنصارًا استمسكوا بالعروة الوثقى، وضربوا في مجال قوة الإيمان أروع الأمثلة التي تملأ قلب الإنسان نشوة وسرورًا. فلما بلغ النبيَّ ﷺ أن قافلة تجارية للكافرين قادمة من قبل الشام تحت قيادة أبي سفيان، وهي تحرض القبائلَ العربية ضد المسلمين، ارتأى وضع الحد لشرورهم. فخرج ﷺ بجماعة من صحابته من المدينة. ولما كانت القافلة التجارية قليلة العدد فلم يُولِها المسلمون الأهمية، ظانين أن عددًا قليلاً منهم يستطيعون التصدي للقافلة. ولكن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ أنهم لن يشتبكوا مع القافلة التجارية، وإنما ستتم المواجهة مع جيش كبير قد خرج لنجدة القافلة. ونهى الله تعالى نبيه ﷺ عن كشف هذا الخبر لأصحابه، ليختبرهم وليجعل آثار إيمانهم العظيم وتضحياتهم السامية خالدة على صفحة العالم إلى الأبد، ولكي يصبح إخلاصهم قدوة حية تُجري دم الحياة في العروق الميتة للأجيال الإسلامية في المستقبل. فلما خرج النبي ﷺ عن المدينة عدة منازل جمع أصحابه وأخبرهم أن الله تعالى يريد أن تدور المعركة بينهم وبين جيش للكافرين كبير قادم من مكة، فما رأيهم الآن؟ فأخذ المهاجرون يقومون الواحد منهم تلو الآخر ويقولون: يا رسول الله، ما الداعي لمشورتنا؟ تَقدَّمْ وحارِبِ العدو، ونحن معك بمُهجنا وأرواحنا. وكلما انتهى مهاجر من قوله وجلس أعاد النبي ﷺ قوله: يا قوم أشيروا عليّ بما ترون. كان الأنصار، قومًا فدائيين وأذكياء، ولكنهم ظلوا صامتين ظنًّا منهم أنهم لو أبدوا رغبتهم في محاربة أهل مكة فربما يستاء المهاجرون من قولهم ظانين أن الأنصار يفرحون بقتل أقاربهم، إذ كانت بينهم وبين أهل مكة قرابات وأواصر، فمنهم من هو أب لبعض المهاجرين، ومنهم من هو ابن لبعضهم، ومن هو أخ لبعضهم، ومن هو خال لبعضهم، ومنهم من هو عم لبعضهم. ولكن الرسول ﷺ لما أعاد قوله قام أنصاري وقال: يا رسول الله، لقد أشار عليك القوم بما يرون، ومع ذلك لا تزال تكرر قولك. فكأنك تريدنا يا

رسول الله، وتود أن تعرف رأينا؟ قال النبي ﷺ، نعم. قال الأنصاري، يا رسول الله، لما زرناك في مكة وبايعنا على يدك، رجوناك أن تهاجر إلينا في المدينة. فقبلت التماسنا وحضرت عندنا. وقد عاهدناك عندها أنه إذا ما هاجم العدو المدينة فسنحميك بأموالنا وأنفسنا، أما إذا خرجتَ لقتال العدو خارج المدينة فلسنا ملزمين بالخروج معك للقتال. وبما أن القتال يتم الآن خارج المدينة فلعلك تشير بقولك هذا إلى تلك المعاهدة وتود أن تعرف رأينا فيما عاهدناك عليه من قبل؟ فقال النبي ﷺ: نعم، هذا هو قصدي. فقال الأنصاري، يا رسول الله، لم نكن وقت الاتفاقية مطّلعين على علوّ شأنك كما ينبغي. أما الآن فقد انكشفت علينا مكانتك العالية، وعرفنا علوّ شأنك وسموّ مقامك وعظيم جاهك وجلالك. فدَعْك من تلك المعاهدة. والله، لو أمرتَنا لخضنا هذا البحر الذي أمامنا. ووالله، لو وقع القتال، فسنحارب عن يمينك وعن شمالك ومِن أمامك ومن ورائك، ولن يخلص إليك العدو إلا على جثثنا الهامدة (السيرة النبوية لابن هشام الجزء الثاني: غزوة بدر الكبرى).

هذا هو الإخلاص الرائع الذي أبداه الأنصار، وهذه هي روح الفدائية التي تحلّوا بها. أمَا وكيف رضوا بأن تُقطع رقابهم في سبيل الإسلام كما تقطع رؤوس المعز والخراف، فهو أمر مكتوب بأحرف من النور في صفحات التاريخ، بل هو محفور على ألواح القلوب بحيث لن تنسى الأجيال القادمة تضحياتهم العظيمة إلى يوم القيامة. قارِنوا هذا الحادث بالجواب الذي تلقاه موسى عليه السلام من قبل أصحابه، لتعرفوا ما أتت به القوة القدسية لرسول الله ﷺ من ثمار عظيمة. فإن موسى عليه السلام لما قال لقومه يا قوم هيا بنا نشنّ الهجوم على أهل أرض كنعان المقدسة، قالوا ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥). أما الأنصار فلم يقولوا للنبي ﷺ سندافع عنك داخل المدينة وفقًا للمعاهدة، ولن ندافع عنك خارجها. كلا، بل ألقوا بأنفسهم في نيران التضحيات بلا هوادة، وفازوا بقرب الله تعالى سابحين في أنهار الدماء. هذه هي الأوراق الزيتونية التي نالها محمد رسول الله ﷺ لتتم المماثلة بينه وبين نوح عليه السلام، والتي قد نبأه الله بها في قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾، حيث أخبر الله تعالى أننا لا نحكي قصة نوح كأسطورة، بل إنها تتضمن

أنباء عظيمة عن رقي محمد رسول الله ﷺ، وإنها لمرآة تعكس لكم مستقبل الإسلام المشرق.